السنةُ السابعةَ عشْرةَ بعد المئتين

فيها ورد المأمونُ مصرَ في المحرَّم، فأُتي بعبدوس الفِهري، فضرب عُنقَه وعاد إلى دمشق.

وفيها قتل المأمونُ عليّاً وحُسيناً ابنَي هشامٍ بأَذَنَةَ في جُمادى الأولى.

وفيها دخل المأمونُ أرضَ الروم، فنزل على لؤلؤة، فأقام عليها ثلاثةَ أشهرٍ وعشرةَ أيام، ورحل عنها وخلَّف عليها عُجَيفاً، فخدعه أهلُها وأَسَروه، فأقام في أيديهم ثمانيةَ أيام، ثم أَطلقوه، وسار توفيل ملكُ الروم إلى لؤلؤة، فأحاط بعُجَيْف، وبلغ المأمونَ، فصرف الجنودَ إليه، فارتحل قبل موافاتهم، ورجع أهلُ لؤلؤةَ إلى عُجَيف بأمان.

وفيها كتب توفيل ملكُ الروم إلى عبد اللهِ ملكِ المسلمين: أما بعد، فإنَّ اجتماع المختلفَين على حظِّهما أَولى بهما من الدأْب فيما يعود بالضَّرر عليهما، ولستَ حَرِيًّا أن تدعَ لحظٍّ يصل إلى غيرك حظًّا تجرُّه إلى نفسك، وفي علمك كافٍ عن إخبارك، وقد كتبتُ إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادَنة، لنضعَ أوزارَ الحرب عنَّا، وتكونَ الموادعة، وتتصلَ بيننا المرافقُ بأمن السُّبل، فإن أجبتَ حصل المراد، وإن أبيتَ خضت إليك همّاً وغمّاً، وملأت بلادَك بخَيل الروم ورَجِلها، وقدَّمتُ المعذرةَ إليك، وأقمت الحجَّةَ عليك، والسلام.

وبعث بالكتاب مع وزيرٍ يقال له: الصقيل[1]، فلما قرأه المأمونُ استشاط غضباً، وكتب إليه:

من عبد اللهِ المأمونِ أميرِ المؤمنين إلى كُليب الروم، أما بعد: فقد بلغني كتابُك فيما سألتَ من الهُدنة، ودعوتَ إليه من الموادعة، وخلطتَ فيه من اللِّينَ بالشدَّة . . . وذكر كلاماً في هذا المعنى، وقال في آخره: وأنا أدعوك للمِلَّة الحنيفية، والشريعةِ الإسلامية، أو جزيةٍ تَحقن بها دمَك، فإن أَبيت، ففي المعاينة ما يُغني عن الإغراق في

(١) كذا في (خ)، وفي تاريخ الطبري ٨/ ٦٢٩: الفضل.

الصِّفة، ولا ينال عهدي الظالمين.

ثم تقدَّم فنزل على سَلَغُوس، وعزم يُنيخ على خليج القُسْطنطينية، فخاف هجوم الشتاء.

وفيها وقع حريقٌ بالبصرة، فأتى على أكثرها، فصاح رجل: قد علمتم أنَّ لي في نهر كذا وكذا كذا وكذا جَرِيباً، فمن خلَّص ابنتي أخذ منها عشرة، فبلَّ رجلٌ كساءَه ودخل النار، وغاب ساعةً ثم خرج ومعه بنتُ الرَّجل،فوقع مغشيّاً عليه من حرِّ النار، فلمَّا أفاق قال له أبوها: اذهب فخذْ ما شئت، فقال: لا واللهِ لا آخذ شيئاً، قال: ولم؟ قال: لو دخلتُ النارَ على طمعٍ لَمَا خَلَصتُ لا أنا ولا هي، ما دخلتها إلَّا على غير طمع، بل لله تعالى. ولم يأخذْ منه شيئاً.

وحجَّ بالناس سليمانُ بن عبدِالله بن سليمانَ بن عليّ.

وفيها توفِّي

عليُّ بن هشامِ بن فَرَّخُسْرو[1]

أبو الحسن، القائدُ المَرْوَزي. أحد قوَّاد المأمونِ وندمائه، وكان قريباً منه، فرُفع إلى المأمون سوءُ سيرته في رعيَّته، وكان قد ولّاه كُوَر الجبال، فقتل الرِّجال وأخذ الأموال، فوجَّه إليه المأمونُ عُجَيفَ بن عَنْبسة، فأراد أن يفتكَ به ويلحقَ ببابَك الخُرَّمي، فظفر به عُجيفٌ وقدم به على المأمون، فأمر بضرب عُنقِه، فقتله عليُّ بن الخليل ابنُ أخيه، وأمر بضرب عُنقِ أخيه الحسينِ[2] محمدَ بنَ يوسف ابنَ أخيه، فقتله، وذلك يومَ الأربعاء، بأَذَنَة، في جُمادى الأولى.

وبعث المأمونُ برأس عليٍّ إلى بغدادَ وخُراسانَ والجزيرةِ والشام ومصر، وطيف به، وأُلقي في البحر. وكتب المأمونُ على الرأس رُقعة، وفيها:

---

(١) في (خ): موخسرو. والمثبت من تاريخ دمشق ١٨/٥٢، والوافي ٢٢/٢٨٨، وبقية مصادر ترجمته ثَمَّة، والترجمة غير موجودة في (ب).

(٢) في (خ): بن محمد. وهو خطأ، انظر تاريخ الطبري ٨/ ٦٢٧.

أما بعد، فإنَّ أميرَ المؤمنين دعا عليَّ بن هشامٍ فيمن كان دعا أيامَ المخلوعِ[١] من أهل خُراسانَ إلى معاونته، فأجاب، فرعى له ذلك، وولَّاه الأعمالَ السَّنيَّة، ووصله بالصّلات الجزيلة، فبلغت أكثرَ من خمسين ألفَ ألفِ درهم، فمدَّ يده إلى الخيانة، والتضييعِ لما استرعاه من الأمانة، فباعده عنه وأقصاه، ثم استقال أميرَ المؤمنين، فأقاله عَثْرَتَه، وولَّاه الجبالَ وإِرْمِينيَةَ وأَذْرَبيجان، ومحاربةَ أعداءِ الله الخُرَّميَّة، على ألَّا يعودَ إلى ما كان، فأساء السِّيرة، وعَسَفَ الرَّعية، وسفك الدماءَ المحرَّمة، فوجَّه أميرُ المؤمنين عُجيفَ بن عنبسةَ مباشراً لأمره، وداعياً إلى تلافي ما كان منه، فوثب بعجيفٍ يريد قتلَه، فظفر به عجيفٌ ودفعه عن نفسه، ولو تمَّ ما أراد [لَكان في ذلك ما لا يُستدرك ولا يستقال، ولكنَّ الله إذا أرادَ][٢] أمراً كان مفعولاً، فلما أَمضى أميرُ المؤمنين من حكم اللهِ في عليِّ بن هشام، رأى ألَّا يؤاخذَ مَن خلفه بذنبه، وأَجرى على مَن ترك من ولده وعيالِه ومَن اتصل بهم في حال حياتِه ما كان جارياً عليهم بعد مماتِه، والسلام.

وكان عليُّ بن هشامٍ فاضلاً شاعراً، وكان المأمونُ يزوره في بيته، ومن شِعره: [من البسيط]

يا موقِدَ النارِ يُذْكيها فيُخمدُها ... قُرُّ الشتاءِ بأرياحٍ وأمطارِ
قم فاصطلِ من فؤادي النار مُضْرَمَةً[٣] ... بالشوق تَغْنَ بها يا موقدَ النار
ويا أخا الذّودِ قد طال الظَّماءُ بها ... ما تعرف الرِّيَّ من جَدْبٍ وإِقتار
رُدَّ العِطاش على عيني ومَحْجِرِها ... تُروَ العِطاشُ بدمعٍ واكفٍ جاري
إنْ غاب شخصُك عن عيني فلم تره ... فإنَّ ذِكرَك مقرونٌ بإضماري

ومرَّت جاريةٌ له بعد قتلِه على قصره، فبكت وقالت: [من السريع]

يا مَنْزلاً لم تَبْلَ أطلالُهُ ... حاشا لأطلالك أن تَبلَى

(١) في (خ): إماماً مخلوع. والمثبت من تاريخ الطبري.
(٢) ما بين حاصرتين من تاريخ الطبري.
(٣) في تاريخ دمشق ٥٢/ ١٨.: النارَ من قلبي مُضَرَّمةً، وفي الوافي ٢٢/ ٢٨٩: من أحشاي.

لـم أَبْـكِ أطـلالَـكَ لـكـنَّـنـي بـكـيـتُ عـيـشـاً فـيـك إذ ولَّـى
قـد كـان لـي فـيـك هـوًى مـرَّةً غـيَّـبـه الـتُّـربُ ومـا مُـلَّا
والـعـيـشُ أَوْلـى مـا بـكـاه الـفـتـى لا بـدَّ لـلـمـحـزون أن يَـسْـلَـى[1]

واسمُ هذه الجاريةِ مُراد، وكانت شاعرةً فصيحةً رئيسة، فقالت: [من المجتث]

هـل مُـسْـعِـدٌ لـبـكـائـي بـعَـبـرةٍ[2] أو دمـاءِ
وذاك مـنِّـي قـلـيـلٌ لـسـيِّـد الـنُّـجَـبَـاء
أبـكـيـتـهـمْ[3] فـي صـبـاحـي بـلَـوعـتـي ومـسـائـي

[وفيها توفِّي]

عَمرُو بن مَسعدةَ

ابنِ سعيد بن صُوْل أبو الفضل الصُّولي. أحدُ كتَّاب المأمون وخاصَّتِه.

[وقال الخطيب:][4] كان له ببغدادَ فوق الجسرِ ساباطٌ يُعرف به، وكان جواداً ممدَّحاً فاضلاً رئيساً نبيلاً جليلاً، ذا مروءةٍ ظاهرةٍ، وفيه يقول الشاعر[5]: [من الطويل]

لَـشـتَّـانَ بـيـن الـمـدَّعـيـن وزارةً وبين الوزيرِ الحقِّ عَمرِو بن مَسعَدهْ
فـهـمُّـهـمُ فـي الـنـاس أن يَـجبَـهـوهـمُ وهـمُّ أبي الـفـضـلِ اصـطـنـاعٌ ومَـحـمـدَه

قال عَمرو بن مَسعدة: كنت مُصعداً من واسط إلى بغدادَ في حرٍّ شديد، فبينا أنا في الزلَّال[6]، إذا برجلٍ ينادي: يا صاحبَ الزلَّال، بنعمة اللهِ عليك إلَّا نظرتَ إليّ،

(١) الأغاني ٧/ ٣٠٢-٣٠٣، وتاريخ دمشق ٥٢/ ٢٣ وليس فيه البيت الأخير.

(٢) في (خ): بعبر: والمثبت من الأغاني ٧/ ٣٠٣، وتاريخ دمشق ٥٢/ ٢٣، وتحرفت في مطبوع الإماء الشواعر للأصفهاني ص٨٨ إلى: بعرة!!.

(٣) في الأغاني وتاريخ دمشق والإماء: أبكيهم.

(٤) في تاريخه ١٤/ ١١٢. وما بين حاصرتين من (ب).

(٥) هو عمرو بن أبي بكر العدوي القرشي، كما في معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٤-٣٥.

(٦) في (خ): الزلازل، في المواضع كلها والمثبت من الفرج بعد الشدة ٣/ ٣١٤، والمنتظم ١١/ ١٠، والزلَّال: ضرب من السفن الصغيرة والسريعة، كانت معروفة بنهاية العصر العباسي، ورد ذكرها في بعض المصادر بلفظ: زلّالة. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى الخطيب ص٢٢٣.

فكشفتُ [سَجْفَ][1] الزلَّالِ، وإذا بشيخٍ ضعيفٍ حاسر، فقال: قد ترى ما أنا فيه، ولستُ أجد من يحملني، فابتغِ الأجرَ فيَّ، فأدركتني له رِقَّة، وأمرتُ بحمله، وكسوته ثوباً ونقداً معي، فقلت: حدِّثني حديثَك. فقال: حديثي طويل:

أنا رجلٌ كانت لله عليَّ نعمة، وكنت صَيرفيّاً، فابتعتُ جاريةً بخمس مئةِ دينار، فشُغفتُ بها، وكنت لا أقدر أن أُفارقَها ساعة، فتعطَّل مكسبي، وأنفقتُ رأسَ المال، ولم يبقَ لي قليلٌ ولا كثير، وحَمَلَت الجارية، فأقبلتُ أَنقض داري وأبيع الأنقاضَ حتى فرغت من ذلك، ولم يبقَ لي حيلة، فأَخذها الطَّلْق، فقالت: إنني أموت، فاحتلْ في دقيقٍ وعسل وشَيْرَج[2] وحاجتي، قال: فبكيت، وخرجتُ على وجهي وجئت إلى دِجلة، وهممتُ أن أُغرق نفسي فيها، فخفتُ من الله عزَّ وجلَّ، فخرجت على وجهي في البرِّيَّة من قريةٍ إلى قرية، حتى بلغت خُراسان، فصادفتُ مَن عرفني، واكتسبتُ مالاً عظيماً، وكتبتُ إلى بغدادَ كتباً كثيرةً نحو ستِّين كتاباً، إلى الجارية، فلم يَصِلني جواب، فلم أشكَّ إلا أنَّها ماتت.

وتراخت فيَّ الأيامُ والسِّنون، وحصل معي ما قيمتُه عشرون ألفَ دينار، فقلت: أَعود إلى وطني، فاشتريتُ متاعاً من خُراسانَ وخرجت، فقطع عليَّ اللصوصُ الطريق، فأخذوا ما معي وما كان في القافلة، وعُدْتُ فقيراً كما خرجتُ من بغداد، ولي منذ فارقت بغدادَ ثمانيةٌ وعشرون سنة.

قال عَمرو: فقلت: إذا صرتَ إلى بغدادَ فَصِرْ إليَّ حتى أُصرِّفَك فيما يصلح لمثلك، ووهبتُ له دراهم، ودخلنا بغداد، ومضت مدَّةٌ ونسيته، فبينا أنا يوماً في موكبي أريد دارَ الخلافة، وإذا بالشيخ راكباً على بغلٍ بمركب ثقيلٍ وعليه ثيابٌ رفيعة، وبين يديه غلامٌ أسودُ وهو واقفٌ على بابي، فسلَّم علي، فرحَّبتُ به وقلت: ما الخبر؟ قال: حديثي طويل، فقلت: عُدْ غداً إليّ، فلما كان من الغد جاءني، فقلت: قد سُرِرت بحالك فحدِّثْني.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من الفرج والمنتظم، والسَّجْف: السِّتْر. القاموس (سجف).

(٢) الشيرج: دهن السمسم.

قال: لمَّا صعدتُ من زَلَّالك قصدت داري، فرأيت حائطَها كما تركته، إلا أنَّ الباب قد غُيِّر بباب مَجلوٍّ نظيف، وعليه بوَّاب، فقلت: إنَّا لله، ماتت جاريتي وملك الدارَ بعضُ الجيران فباعها على رجلٍ من أصحاب السلطان، ثم تقدَّمتُ إلى دكَّان بقَّالٍ كنت أعرفه في المحلَّة، وإذا فيها غلامٌ حَدَث، فقلت: مَن تكون من فلانٍ البقَّال؟ فقال: ابنُه، قلت: ومتى مات أبوك؟ قال: منذ عشرين سنة، قلت: ولمن هذه الدار؟ قال: لابن دايةِ أمير المؤمنين، وهو الآن جِهْبِذُه[1] وصاحبُ بيت ماله، قلت: فبمن يُعرف؟ قال: بابن فلانٍ الصَّيرفي، فذكر اسمي، قلت: فهل يعيش أبوه؟ فقال: كان رجلاً جليلاً فافتقر، وإنَّ أمَّ هذا الصبيِّ ضربها الطَّلق، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً، ففُقد وهلك. قال لي أبي: فجاءني رسولُ هذه المرأةِ يستغيث بي، فقمت لها بحوائج الوِلادة، ودفعت إليها عشرةَ دراهم، فأنفقتها، فقيل: وُلد لأمير المؤمنين الرشيدِ وَلَدٌ ذَكَر، وقد عرض عليه الداياتِ فلم يقبل ثديَ امرأة، قال أبي: فأرشدتُ الذي كان يطلب الداياتِ إلى أمِّ هذا، فحُملت إلى دار أميرِ المؤمنين الرشيد، فحين وُضع فمُ الصبيِّ على ثديها قَبِلَه، فأَرضعته، وكان الصبيُّ المأمون، ونشأ الصبيُّ وصار عندهم في حالةٍ جليلة، ووصل إليه منهم أموالٌ عظيمة.

ثم خرج المأمونُ إلى خُراسان، فخرجت هذه المرأةُ وابنُها معها، ولم نعرفْ من أخبارهم شيئاً إلا منذ قريبٍ، لمَّا عاد المأمونُ من خُراسانَ وعادت حاشيتُه معه، رأينا هذا قد صار رجلاً، ولم أكن رأيته قطّ، فقيل: هذا ابنُ فلان الصيرفيِّ وابنُ دايةِ أميرِ المؤمنين، فبنى هذه الدارَ وسوَّاها.

قلت: فهل عندك علمٌ من أمّه أَحيَّةٌ هي أم ميِّتة؟ قال: حيَّة، تمضي إلى دار الخليفةِ فتكون عندهم أياماً، وتأتي إلى ابنها فتكون عنده أياماً، قال: فحمدتُ اللهَ على هذه الحالة، وجئت فدخلت مع الناس إلى الدار وقد تغيَّرت عمارتها، وفيها مجلسٌ كبير مفروش، وفي صدره شابّ، وبين يديه كتَّابٌ وجهابذةٌ وأموال وشواهين[2]، وهم يَقبَضُون ويُقبِضُون، ورأيت شَبَهي في الغلام، فعلمت أنَّه ابني، فجلست في غِمار

(١) الجهبذ: النقاد الخبير.

(٢) الشاهين: عمود الميزان. القاموس (الشاهين).

الناسِ إلى أن لم يبقَ في المجلس غيري، فأَقبل عليَّ وقال: يا شيخ، هل من حاجة؟ قلت: نعم، ولكنها أمرٌ لا يجوز أن يسمعَها غيرك، فأشار إلى الغِلمان فتأخَّروا، فقلت: أنا أبوك، فلمَّا سمع ذلك تغيَّر وجهه، ولم ينطقْ بحركة ولا بحرفٍ واحد، وقام مسرعاً وتركني في مكان، فلم أَشعرْ إلا بخادمٍ قد جاء وقال: قم يا سيِّدي، فقمت أمشي، فبلغت إلى سِتارة ممدودةٍ في دارٍ لطيفة، وكرسيٌّ بين يديها والفتى جالسٌ عليه، وكرسيٌّ آخَر، فقال: اجلسْ أيها الشيخ، فجلست وقلت: أظنُّك تريد أن تعتبرَ[1] صدقَ قولي من جهة فلانة، وذكرتُ اسمَ جاريتي، وإذا بالسِّتارة قد هُتكت وخرجت الجاريةُ فأَلقت نفسَها عليّ، وجعلت تبكي وتقول: مولاي والله، وقام الفتى وخرج، والجاريةُ تبكي وتقول: حدِّثْني حديثَك، فحدَّثتها حديثي من يومِ فارقتُها إلى ذلك اليوم، وجاء خادمٌ فقال: يا مولاي، ولدُك يسألك أن تخرج إليه، فخرجت إليه، فلمَّا رآني من بعيدٍ قام قائماً وقال: العذرُ إلى الله وإليك يا أَبَهْ من تقصيري في حقِّك، فإنَّه قد جاءني ما لم أظنَّ أن يكونَ مثلُه، والآن فهذه النعمةُ لك، وأنا ولدُك، وأميرُ المؤمنين يجتهد لي منذ دهرٍ طويل أن أدعَ الجِهبذةَ وأتوفَّرَ على خدمته، فلا أفعلُ طمعاً للتمسُّك بصَنعتي، والآن فأنا أسأله أن يردَّ إليك عملي، وأخدمه أنا في غيره، قم عاجلاً فأَصلِحْ أمرَك.

فدخلت الحمَّام وتنظَّفت، وجاؤوني بخِلعة فلبستها، ثم أَدخلني على أمير المؤمنين وحدَّثه بحديثي، فأمر لي بخِلعة، فهي هذه، وردَّ إليَّ العملَ الذي كان إلى ابني، وأمر لي من الرِّزق بكذا وكذا، وقلَّد ابني أعمالاً هي أجلُّ من عمله، فجئت أشكرك على ما عاملتَني به من الجميل، وأعرِّفك تجدُّدَ النعمة.

قال عَمرو: فلما سمَّى لي الفتى عرفته، وعلمت أنَّه ابن دايةِ أمير المؤمنين.

واستبطأ المأمونُ عَمرَو بنَ مسعدةَ في أشياء، وكان أحمدُ بن أبي خالدٍ حاضراً، فأخبر عَمراً بذلك، فدخل على المأمون ورمى سيفَه وقال: أنا عائذٌ بالله من سخط أميرِ المؤمنين، فقال له: وما ذاك؟! فأخبره بما قال أحمد، فاستحيى منه، فلما خرج دخل أحمد، فقال له المأمون: أما لمجلسي حرمة! أشكو إليك خادمي سراً فترفعه إليه،

(١) في المنتظم والفرج: تختبر.

فقال يا أمير المؤمنين، مثل عمرو مناصحته لا يوجد، فأخبرته بتفريط ليستدرك ما مضى، فقال له المأمون: أحسنت.

[ولعَمرو بن مَسعدةَ حكاياتٌ مستطرَفة، منها ما ذكره القاضي التَّنوخي في كتاب «الفَرج بعد الشدَّة»[١] وحكاه جدِّي رحمه الله في «المنتظم»[٢] فقال: حدَّثنا محمد بنُ عبدِ الباقي: حدَّثنا عليُّ بن المحسِّن التنوخيُّ، عن أبيه] قال: قال عَمرو بن مَسعدة[٣]: كنتُ مع المأمون عند قدومِه من بلاد الروم، حتى إذا نزل الرَّقَّةَ قال: يا عَمرو، ما ترى الرُّخَّجيَّ[٤] قد احتوى على [أموال] الأهواز وجمعها وطمع فيها؟! وكتبي متصلةٌ في حملها، وهو يتعلَّل [ويتربَّص بي الدوائر!][٥] فقلت: أنا أكفي أميرَ المؤمنين بأمره، قال: تخرجُ إليه بنفسك حتى تصفِّدَه بالحديد وتحملَه إلى بغداد، وتقبضَ على جميعِ ما في يده من أموالنا، وتنظرَ في العمل وترتِّب فيه عمَّالاً، فقلت: السمع والطاعة.

فلمَّا كان من غدٍ دخلتُ عليه [فاستعجلني] فانحدرتُ[٦] في زلَّال أُريد البصرة، واستكثرت من الثلج لشدَّة الحرِّ، فلما صرت بين جَرْجَرَايا وجَبُّل سمعت صائحاً من الشاطئِ يصيح: يا ملَّاح، فرفعت سُجُفَ الزلَّال، فإذا بشيخٍ كبير السِّنّ، حاسر، حافي القدمين، خَلَقِ القميص، فقلت للغلام: أَجِبه، فأجابه، فقال: يا غلام، أنا شيخٌ كبير

(١) ٣/٣٠٦. والحكاية مذكورة أيضاً في العقد الفريد ٤/١٧٥-١٧٩، وصبح الأعشى ١/١٤٢-١٤٥ وما بين حاصرتين من (ب).

(٢) ١١/٧.

(٣) في (خ): قال: قلت للقاضي أبو علي الحسن بن علي التنوخي ذكر للقاضي أبو الحكماء كتابه قال: وقال عمرو بن مسعدة...

(٤) هو: عمر بن الفرج، كما في صبح الأعشى ١/١٤٢.

(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

(٦) في (خ): دخلت عليه فقال: ما فعلت فيما أمرتك؟ قلت: أنا على ذلك، قال: أريد أن تجيئني في غد مودعاً، فلما كان من الغد جئته مودعاً، قال: أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم إلا يوماً واحداً ببغداد، فاضطربت في ذلك، فاستحلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت حتى قدمت بغداد ولم أقم إلا ثلاثة أيام، وانحدرت في زلازل ... إلخ.
وكذلك هو في الفرج بعد الشدة، إلا أني أثبت ما في (ب)؛ لأنه يوافق ما في المنتظم، وقد قال كما سيأتي: هذا صورة ما حكى جدي عن التنوخي.

السِّنِّ على هذه الصورةِ التي ترى، وقد أحرقتني الشمسُ وكادت تُتلفني، وأريد جَبُّل، فاحملوني معكم، فإنَّ اللهَ يُحسن أَجرَ صاحبكم، فشتمه الملَّاح وانتهره، فأدركتني رِقَّة عليه، فقلت للغلام: خذوه معنا، فحملناه، فتقدَّمت بأن يُدفَعَ إليه قميصٌ ومنديل، وغسل وجهَه واستراح، وحضر وقتُ الغداء، فقلت للغلام: هاتِه يأكلْ معنا، فجاء فأكل أكلَ أديب، غير أنَّ الجوع بيِّن عليه، فلمَّا أكلنا قلت: يا شيخ، أيُّ شيءٍ صناعتُك؟ قال: حائك، فتناومتُ عليه ومددتُ رِجلي، فقال: وأنت أعزَّك اللهُ أيُّ شيءٍ صناعتُك؟ فأكبرت ذلك وقلت: أنا جَنَيتُ على نفسي، أَتُراه لا يرى زلَّالي وغِلماني ونعمتي وأنَّ مثلي لا يقال له هذا! [قلت:] ليس إلَّا الهَزْلُ[1] بهذا، فقلت: كاتب، فقال: أصلحك الله، إنَّ الكُتَّاب خمسة، فأيُّهم أنت؟

فسمعت كلمةً أكبرتها، وكنت متّكئاً فجلست، ثم قلت: فصِّل الخمسة، قال: نعم، كاتبُ خَراج: يحتاج أن يكونَ عالماً بالشُّروط والطُّسوق[2] والحسابِ والمساحة والبُثوق والفُتوق والرُّتوق، وكاتبُ أحكام: يحتاج أن يكونَ عالماً بالحلال والحرامِ والاختلاف والأُصول والفروع، وكاتب معونةٍ: يحتاج أن يكونَ عالماً بالقصاص والحدودِ والجِراحات، وكاتبُ جيشٍ: يحتاج أن يكونَ عالماً بحُلي الرِّجال وسِمات الدوابِّ ومداراةِ الأولياءِ وشيءٍ من العلم بالنَّسب والحساب، وكاتبُ رسائلَ: يحتاج أن يكونَ عالماً بالصُّدور والفصول والإطالة والإيجاز وحُسنِ الخطِّ والبلاغة [فما أنت من هؤلاء؟!].

فقلت له: فإني كاتبُ رسائل، فقال: أَصلحك الله، لو أنَّ رجلاً من إخوانك تزوَّجتْ أمُّه فأردتَ أن تكاتبَه مهنِّئاً، كيف كنت تكاتبه؟ ففكَّرت في الحال، فلم يخطرْ ببالي شيء، فقلت: ماأرى للتهنئة وجهاً، قال: فكيف تكتب إليه تعزِّيه؟ ففكرت فلم يخطرْ ببالي شيء، فقلت: أَعفِني، قال: قد فعلت، ولكنك لستَ بكاتب رسائل، قلت: فأنا كاتبُ خَرَاج، قال: لو أنَّ أميرَ المؤمنين ولَّاك ناحيةً وأمرك فيها بالعدل واستيفاءِ حقِّ السلطان، فتظلَّم إليك بعضُهم من مسَّاحك، وأحضرتَهم للنظر بينهم وبين

(١) في (ب): الزهد، وما بين حاصرتين منها، والمثبت من (خ).

(٢) الطسق: مكيال، وما يوضع من الخراج على الجريب. معجم متن اللغة (طسق).

رعيَّتك، فحلف المسَّاح بالله لقد أنصفوا، وحلفت الرعيةُ لقد ظُلموا، فقالت الرعية: قفْ معنا على ما مسحوه، فخرجتَ لتقف، فوقفوا بك على قَرَاحٍ[١] شكلُه: قاتل [قثا][٢] كيف كنتَ تمسحه؟ قلت: كنت آخذ طولَه على انعواجه وآخذ عرضَه ثم أَضربه في مثله، قال: إنَّ شكل: قاتل قثا، يكون[٣] رأساه محدَّدان، وفي تحديده تقويس، قلت: فآخذ الوسَطَ فأَضربه في العرض[٤]، قال: إذن ينثني عليك العمود، قال: ولستَ كاتبَ خراج. قلت: فأنا كاتب قاضٍ، قال: أرأيتَ لو أنَّ رجلاً توفِّي وخلَّف امرأتين حاملتين، إحداهما حُرَّة والأخرى سُرِّيَّة، فولدت السُّرِّيةُ غلاماً، والحرَّة جاريةً، فعمدت الحرةُ إلى ولد السُّرية فجعلته في مهدها، ووضعت ابنتَها في مهد السُّرية، واختصمتا في ذلك، كيف يكون الحكمُ بينهما؟ قلت: لا أدري، قال: ولست بكاتب قاض. قلت: فأنا كاتبُ جيش، قال: أرأيت لو أنَّ رجلين جاءا إليك لتحلِّيَهما، وكلُّ واحدٍ منهما اسمُه واسم أبيه كاسم الآخَر واسمِ أبيه، إلَّا أنَّ أحدهما مشقوقُ الشَّفة العليا، والآخر مشقوقُ الشَّفةِ السفلى، كيف كنت تحلِّيهما؟ قال: أكتب: فلانٌ الأَعلم وفلانٌ الأَعلم، قال: إنَّ رزقَيهما مختلفان، فيجيءُ كلُّ واحد منهما في دعوى الآخَر، قلت: لا أدري، قال: فلست كاتبَ جيش. قلت: أنا كاتبُ معونة، قال: لو أنَّ رجلَين رُفعا إليك، قد شجَّ أحدُهما صاحبَه شجَّةً واضحة، وشجَّ الآخَرُ صاحبَه شجَّة مَأْمُومة[٥]، كيف تفصل بينهما؟ قلت: لا أدري، قال: ولست إذن كاتبَ معونة، أُطلب لنفسك أيها الرجلُ شغلاً.

---

(١) بعدها في (ب): قال: وما زال يذكر في حق كل كاتب حالة لا أعلمها إلى أن قلت: فاشرح أنت فشرح الكل فقلت: أليس زعمت أنك حائك ... إلخ. وفي المنتظم: فوقفوك على قراح كذا كذا، لشيء وصفه، كيف تكتب؟ قلت: لا أدري، قال: فلست بكاتب خراج، فما زال يذكر في حق كل كاتب حالة ... إلخ. والمثبت من (خ)، وهو موافق لما في الفرج بعد الشدة. وينظر العقد والصبح، والقراح: المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر. مختار الصحاح (قرح).

(٢) ما بين حاصرتين من الفرج بعد الشدة، ووردت في صبح الأعشى ١/ ١٤٤: قابل قسيا.

(٣) في (خ): شكل قاتل أن يقول. والمثبت من الفرج بعد الشدة.

(٤) في الفرج بعد الشدة: في العمود.

(٥) الشَّجَّة: الجراحة. والواضحة والمُوضِحَة: الشَّجَّة التي بالرأس تكشف العظم. والمأمومة: الشَّجَّة التي تصل إلى أمِّ الدِّماغ. المصباح المنير (شجَّ) و(وضح) و(أمم).

فقَصُرت نفسي إليَّ، وغاظني، فقلت: سألتَ عن هذه الأمورِ، ويجوز ألَّا يكونَ عندك جوابُها كما لم يكن عندي، فإنْ كنتَ عالماً بالجواب فقل؟! قال: نعم، أما الذي تزوَّجَتْ أمُّه، فتكتب إليه: أمَّا بعد، فإنَّ الأمور تجري من عند اللهِ من غير محبَّة عباده ولا اختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أَحبّ، وقد بلغني تزويجُ الوالدة، خار اللهُ لك في قبضها؛ فإنَّ القبورَ أكرمُ الأزواج، وأسترُ للعيوب، والسلام.

وأما قَراح: قاتل [قثا] فتمسح العمود، حتى إذا صار عدداً في يدك ضربتَه في مثله ومثلِ ثُلثه، فما خرج فهو مساحتُه.

وأمَّا الجاريةُ والغلام، فيوزن اللَّبنان، فأيُّهما كان أخفّ، الجاريةُ له.

وأمَّا المرتزقان والمتوافقا الاسمَين، فإنَّه إذا كان الشَّقُّ في الشَّفة العليا كتبتَ: فلانٌ الأعلم، وإذا كان في الشَّفة السُّفلى كتبت: فلانٌ الأفلح.

وأما صاحبا الشَّجَّتين، فلصاحب المُوْضِحة ثُلث الدِّيَة، ولصاحب المأمومةِ نصفُ الديَة.

فقلت: يا شيخ، ألست زعمتَ أنَّك حائك؟! قال: أنا - أصلحك الله - حائكُ كلام، ولست بحائك نسَّاجة، ثم أنشأ يقول: [من مجزوء البسيط]

ما مرَّ بؤسٌ ولا نعيمٌ ... إلَّا ولي فيهما نصيبُ
نوائبُ الدَّهرِ أدَّبتني ... وإنَّما يوعَظ اللَّبيب
قد ذُقتُ حُلْواً وذقتُ مُرّاً ... كذاك عيشُ الفتى ضُروب

قلت: فما الذي أرى بك من سوءِ الحال؟ فقال: أنا رجلٌ دامت عطلتي، وكثرت عَيلتي، وتواصلت مِحنتي، فخرجت أطلب التصرُّف، فقُطع عليَّ الطريق، فتُركت كما تراني، فمشيت على وجهي، فلمَّا لاح لي الزلَّال استغثتُ بك.

قلت: فإني قد خرجتُ إلى تصرُّف جليل، أَحتاج فيه إلى جماعةٍ مثلِك، وقد أمرتُ لك عاجلاً بخِلعة حسنةٍ وخمسةِ آلاف درهمٍ تُصلح بها أَمرَك، وتُنفِذ منها إلى عِيالك، وتصير معي إلى عملي، فأولِّيك أجلَّه.

فقال: أحسن اللهُ جزاءك، إذن تجدني بحيث يسرُّك، فانحدر معي، فجعلتُه المناظرَ

للرُّخَّجي، والمحاسبَ له، فقام بذلك أحسنَ قيام، فحسنت حالُه معي وعادت نعمتُه.

[قلت: هذا صورةُ ما حكى جدِّي عن التَّنوخي].

وكانت وفاةُ عَمرٍو [ابن مسعدة] في هذه السَّنة بأَذَنَة.

[قال الخطيب:][1] رُفع إلى المأمون أنه خلَّف ثمانين ألفَ ألفِ درهم [قال] فوقَّع [المأمون:] هذا قليلٌ لمن اتصل بنا، وطالت خدمتُه لنا، فبارك اللهُ لوَرَثته فيه.

[وكان عَمرو من أكابر أصحابِ المأمون، وله قصصٌ نذكرها في ترجمة المأمونِ إن شاء اللهُ تعالى.]

❁ ❁ ❁ ❁

(١) لم أقف عليه في تاريخه، وهو في المنتظم ١١/ ٧. وما بين حاصرتين من (ب).